القسم الأول

الفصل الرابع

أثر شرح أبي القاسم الأفليلي وقيمته

أثر شرح أبي القاسم الأفليلي في الشرّاح

أثنى ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد على شرح أبي القاسم الأفليلي لديوان المتنبي بقوله: «ومما يتعلق بذلك شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد الأفليلي لشعر المتنبي، وهو حسن جداً» وعدّه من فضائل أهل الأندلس التي فاخر بها أهل المشرق، لكن هذا الثناء وإن سلّم لأبي القاسم الأفليلي بعموم الفضل، ونظمه في سلسلة أهل العلم ومشاركة المبدعين، إلا أنه لم يحمه من خصوص التقويم والنقد، فقد استدرك ابن حزم على هذا الشرح بمؤلف «التعقيب على الأفليلي في شرحه لديوان المتنبي»[1].

وإذا كنا لا نعرف ماهية هذا التعقيب ولا مرتكزاته ومجالاته؛ لأنه ما زال مفقوداً، فإنه آثار حمية الدفاع عن أبي القاسم الأفليلي نجدها عند عبدالله ابن أحمد المعروف بالنبّاهي تلميذ أبي القاسم من أهل مالقة، وكان عالماً بالآداب واللغات والأشعار، فكتب ردّاً على أبي محمد بن حزم فيما انتقد على الأفليلي في شرحه لشعر المتنبي[2].

ومثل هذا التدافع النقدي نافع في إضفاء قيمة على هذا الكتاب على نحو ما، من حيث بيان عيوبه، أو إظهار مناقبه وخصائصه، وهو مفيد بعد ذلك في إثراء الحركة الأدبية والنقدية في القرن الخامس الهجري وتقويمها.

وترك شرح أبي القاسم صدى واضحاً في بعض شراح شعر أبي الطيب

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٨ ص ١٩٧.

(٢) الصلة لابن بشكوال ١/٢٨٣.

المتنبي خاصة في صقلية ومصر، فابن القطاع[1] ينقل عن ابن الأفليلي فيما تناوله من شرح لأبيات المتنبي فمن ذلك قوله:

ولـو غـير الأمـير غـزا كـلابـا ثـنـاه عـن شـمـوسـهـم ضـبـاب

«قال ابن القطاع: قال ابن الأفليلي في شرح هذا البيت: يريد شموس كل يوم يقتلهم فيه»[2].

ويبدو أن أبا علي الحسين بن عبدالله الصقلي المغربي قد اطلع على شرح أبي القاسم الأفليلي وأفاد منه، وتأثر بطريقته في تناول بعض الأبيات، من ذلك قول المتنبي:

أيفـطـمـه التـوراب قـبـل فـطامـه ويـأكـله قـبـل الـبـلوغ إلى الأكـل

قال أبو علي الصقلي: «الفطام منع الطفل من الرضاع، والتوارب لغة في التراب»[3].

وقال الأفليلي: «الفطام: منع الصبي من الرضاع، والتوراب لغة في التراب»[4].

وفي قول المتنبي:

ضـلالاً لهـذا الـريـح مـاذا تـريـده وهـديـاً لهـذا الـسيـل مـاذا يـؤمم

(١) هو أبو القاسم علي بن جعفر بن علي التميمي السعدي الصقلي (ت ٥١٥) له آثار في اللغة والأدب، منها كتاب الأفعال، وشرح ديوان المتنبي، والدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة - والموجود من شرحه لشعر المتنبي شرح بعض الأبيات في دار الكتب المصرية برقم ٢٧ ش. (انظر أبو الطيب المتنبي في آثار الدارسين ص ٣٨٢ ومصادره).

(٢) التبيان ١/٨٣.

(٣) التكملة في شرح ديوان المتنبي لأبي علي الصقلي مصور عن الأصل المخطوط في مكتبة ولي الدين بتركيا رقم ٢٦٨٨ ورقة ٢٧١. وقد طبع هذا الشرح محققاً وصدر عن دار عمار في عمان - ولم يقع تحت يدي إلى الآن.

(٤) انظر القصيدة ٨ بيت رقم ٢٣ من هذا الشرح.

قال أبو علي الصقلي: «ودعا للريح بالضلال؛ لأنه يزعم أنها ما أرضت سيف الدولة، وأرادت أن تثنيه عن قصده، ودعا للسيل بالهدى، لأنه زعم أنه جاء مع سيف الدولة يزور قبر أمه، ويسقي تربتها»[1].

ويقول أبو القاسم الأفليلي: «ثم دعا للريح ولم يدع لها، ودعا للسيل ولم يدع عليه، لأن الريح اعترضت سيف الدولة في مسيره، ولم تسعده على شيء من أموره، والسحاب وإن كان رام ثنيه بوبله، ووعّر طريقه بسيله، فإنه تلاه متعلماً من جوده، وصحبه مسعداً له على رأيه، قاضياً لذمام القبر الذي قصده، ومروضاً بسقياه للربع الذي اعتمده»[2].

وفي قول المتنبي:

وقبل يرى من جوده ما رأيته ويسمع فيه ما سمعت من العذل

قال أبو علي الصقلي: «ويجوز في قوله «ويسمع فيه ما سمعت من العذل»، الرفع والنصب، فالرفع على أنه لما حذف أن رفع عملها، والنصب على أنه حذفها وأبقى عملها ليدل عليها. وبيت طرفة:

ألا أيهذا الزاجري احضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

يروى برفع أحضر ونصبه، كذا الأصل فيه أن أحضر الوغى، ثم حذف أن، وعليه حمل بيت أبي الطيب أيضاً»[3].

ويقول ابن الأفليلي: «وحذف أن من كلامه وهو يريدها في قوله (وقبل يرى) والعرب تفعل ذلك، قال الشاعر:

ألا بهذا الزاجري أحضر الوغى

(١) التكملة في شرح ديوان المتنبي لأبي علي الصقلي ورقة ٣٠٢.
(٢) انظر القصيدة ٢٥ بيت رقم ١٩.
(٣) التكملة في شرح ديوان المتنبي لأبي علي الصقلي ورقة ٢٧١.

يريد أن أحضر، «فحذف لدلالة الكلام على ما أراد»[1].

وأفاد صاحب التبيان من شرح ابن الأفليلي إفادة عظيمة، وعدّه من مصادره في شرحه، ونص على شرح بعض الأبيات بقوله: «قال ابن الأفليلي». وعلى الرغم من أن نصه على الأفليلي كان في عشرين موضعاً، إلا أن ما نقله من شرحه حرفياً يجاوز الثلاثمائة بيت، فضلاً عما أخذه من شرحه جزئياً وكان في خمسة وسبعين موضعاً تقريباً.

ومعنى ذلك أن هذا الشرح معتمد أساس لدى صاحب التبيان إلى جانب ابن جني والواحدي اللذين أكثر النص عليهما، على أن تحديد هذا النقل والأخذ يكشف عن مصدر هام في تحقيق شرح التبيان[2]، الذي آثر صاحبه أن يعمي على حقيقته، فأوهم أنه من تحليله وتفسيره وتذوقه.

وبدهي أن هذا النقل والأخذ يتجاوز مجموع العدد الذي أشرت إليه (قريب من ٤٠٠) بيت، إذا أضفنا إليه القصيدتين اللتين سبقت الإشارة إلى النصّ فيهما على أبي القاسم الأفليلي أو ما يكشف عنه السفر الثاني من هذا الشرح عند التحقيق.

والنقل عن أبي القاسم يتخذ أشكالاً عدة، فهو إما نقل للألفاظ ومعانيها، أو نقل للقضيّة اللغوية، أو نقل للمعنى والشرح، أو نقل للمعنى والقضيّة الفنية فيه. فمما جاء النقل فيه للفظ والمعنى والقضيّة اللغوية شرح قول المتنبي:

إن استحسنت وهو على بساط فأحسن ما يكون على الرجال

(١) انظر قصيدة ٨ بيت رقم ٢٤.

(٢) أعلن في نشرة معهد المخطوطات ـ الكويت ـ عن تسجيل رسالة بعنوان «التبيان للعكبري دراسة وتحقيقاً لمحمد نجيب قباوة ـ جامعة دمشق ١٩٨٤.

قال صاحب التبيان: «استحسنت: أراد استحسنته، فحذف الهاء للعلم به، والمفعول به كثيراً ما يحذف، وأنشد سيبويه:

فأقبلت زحفاً على الركبتين فثوب لبست وثوب أجر

أراد لبسته وأجره، فحذف المفعولين، لدلالة الكلام عليهما.

المعنى: يقول: إن استحسنت هذا السلاح وهو على بساط، فأحسن ما يكون إذا لبسه الرجال وأظهر فضله القتال»[1].

وقال أبو القاسم الأفليلي في شرح هذا البيت: «وقوله: «إن استحسنت وهو على بساط» أراد: إن استحسنته، فحذف الهاء لقوة دلالة الكلام عليها، والعرب تفعل ذلك، أنشد سيبويه في مثل ذلك:

فأقبلت زحفاً على الركبتين فثوب نسيت وثوب أجر

يريد: نسيته وأجره، وحذف الهاء لدلالة الكلام عليها، فيقول: إن استحسنت هذا السلاح وهو على بساط، فأحسن ما يكون إذا لبسته الرجال، وأظهر فضله القتال»[2].

ومما وقع لصاحب التبيان من نقل اللفظ والمعنى والنزعة التعليميّة ما جاء في قول المتنبي:

تلقى الوجوه بها الوجوه وبينها ضرب يجول الموت في أجواله

قال في التبيان: «الأجوال: النواحي؛ الواحد: جول.

المعنى: أنه وصف الساعة، فقال: إن وجوه الأبطال الذين لا ينكصون يلقى بعضها بعضاً، وبينها ضرب شديد، وجلاد وكيد، يكثر فيه الموت،

---

(١) التبيان ٣/٩٤.

(٢) انظر القصيدة ٤٣ البيت رقم ٥.

ويجول في نواحيه، وجانس بقوله: يجول وأجواله؛ لأن حروف يجول والأجوال واحد، والمعنى في الكلمتين مختلف، وهذا في الكلام هو التجنيس»[1].

وقال ابن الأفليلي: «الأجوال: النواحي، واحدها جول.

ثم وصف تلك الساعة، فقال: إن وجوه الأبطال الذين لا ينكصون، يلقى بعضها بعضاً، وبينها ضرب شديد، وجلاد وكيد، يكثر الموت فيه، ويجول في نواحيه، وجانس بقوله يجول الموت في أجواله، لأن حروف الأصل في يجول وفي أجواله واحدة، والمراد بالكلمتين مختلف، واتفاق هذا في الكلام هو التجنيس، وهو من البديع»[2].

ونقل صاحب التبيان المعنى والدقائق الفنية في قول المتنبي:

وإذا تعثرت الجياد بسهله برّزت غير معثر بجباله

فقال: «المعنى: يقول: إذا بعد سهل الكلام على أهل الإحسان، وصعب انقياده لهم، لصعوبة المقامات التي توجب ذلك، برّزت هناك غير مقصر في غوامض القول، ولا متعثر في بدائع الشعر، وكنى بالسهل عما قرب من الكلام، وبالجياد عن أهل الإحسان، فاستعار هذه الألقاب أحسن استعارة، وأشار إلى إحسانه أبدع إشارة، وهذا من بديع الكلام»[3].

ويقول ابن الأفليلي: «ثم قال: وإذا بعد سهل الكلام على أهل الإحسان، وصعب انقياده لهم، لصعوبة المقامات التي توجب ذلك، برزت هنالك غير مقصر في غوامض القول، ولا متعثر في بدائع الشعر، وكنى بالسهل عما قرب من الكلام، وبالجبال عما غمض منه، وبالجياد عن أهل

(١) التبيان ٣/٥٧.
(٢) انظر القصيدة ١٢ البيت رقم ١١ من هذا الشرح .
(٣) التبيان ٣/٥٧.

الإحسان، فاستعار هذه الألقاب أحسن استعارة، وأشار إلى إحسانه أبدع إشارة، وكل ذلك من بديع الكلام»[1].

وقد يأخذ صاحب التبيان شرح أبي القاسم الأفليلي جزئياً، بأن يعمل فيه الزيادة أو الحذف أو التقديم والتأخير، ومما جاءت الزيادة عليه قول المتنبي:

على عاتق الملك الأغر نجاده وفي يد جبار السموات قائمه

فبعد أن وجه رواية الفتح والضم لميم الملك في البيت قال: «المعنى: يقول هو سيف يتقلده الخليفة (على إحدى الروايتين)، فهو زين للخليفة ناصر لدين الله، وعلى الرواية الأخرى، هو سيف على عاتق المملكة، نجاده يتزين به الملك، فهو من الملك في أرفع مواضعه، ومن تأييد الله بالجد الذي يمضيه في أعلى مواقعه، وإذا كان كذلك، اكتنفه نصره، وساعدته أقداره، فيحنئذ يبلغ مراده من أعدائه...»[2]. فمن قوله «فهو من الملك في أرفع مواضعه إلى قوله وساعدته أقداره» مأخوذ من شرح أبي القاسم الأفليلي[3].

ومن تمويه صاحب التبيان أنه يفرق بين معنى ومعنى، في شرح البيت الواحد بما يشعر بتعدد الرؤية في فهم البيت، كأن يقول المعنى... والمعنى، أو المعنى... وتلخيص المعنى، وما المعنى والمعنى أو تلخيص المعنى إلا فهم أبي القاسم الأفليلي مجتمعاً فجعله صاحب التبيان متعدداً، من ذلك قول المتنبي:

أقلُّ بلاءً بالرزايا من القنا وأقدم بين الجحفلين من النبل

قال صاحب التبيان: «المعنى: يقول: إن رهط سيف الدولة أقل

---

(١) انظر القصيدة ١٢ البيت رقم ١٣.

(٢) التبيان ٣/٣٤١.

(٣) انظر القصيدة رقم ١ البيت رقم ٣٨.

بالرزايا مبالاة من الرماح المتوقعة، وأقعد بين الجيشين المتقابلين من السهام المرسلة.

والمعنى: لا يبالون بما يصيبهم، كما لا يبالي بها من لا يعرفها، وقوله من القنا، لأنه جماد لا يعرف الرزايا، فشبههم لجراءة أنفسهم، وجلدهم على الرزايا إذا طرقتهم بالرماح والسهام التي تصيب ولا تصاب، وتهاب ولا تهاب»[1].

وإذا حذفنا من الشرح السابق «وقوله من القنا، لأنه جماد لا يعرف الرزايا، الذي لا يقدم ولا يؤخر في المعنى، كان المعنى؛ هو شرح أبي القاسم الأفليلي إذ يقول: «إن رهط سيف الدولة أقل مبالاة بالرزايا من الرماح المتوقعة، وأنفذ بين الحجفلين المتقاتلين من السهام المرسلة، فشبههم لجرأة أنفسهم، وجلدهم على الرزايا إذا طرقتهم بالرماح والسهام، التي تصيب ولا تصاب، وتهاب ولا تهاب»[2].

ولئن كان فيما مضى من نماذج بعض دلالة على احتفال صاحب التبيان بشرح أبي القاسم الأفليلي وأهميته لديه، فإن مما يرفع درجة هذا الاحتفال، ويزيد في هذه الأهمية، تفرد أبي القاسم بشرح بعض القصائد أو بعض الأبيات من غير قرين مساعد في الشرح، أو اقترانه بعلمين شهيرين في هذا المجال هما: ابن جنى والواحدي.

ففي القصيدة التي يرثي بها أبا الهيجاء ومطلعها:

بنا منك فوق الرمل ما بك في الرمل وهذا الذي يضني كذاك الذي يبلي

وتعداد أبياتها اثنان وثلاثون بيتاً، اعتمد صاحب التبيان على شرح أبي القاسم حرفياً بما في ذلك شرح الألفاظ أحياناً، واستعان بابن جنى وابن

(١) التبيان ٣/٤٦.

(٢) القصيدة ٨ البيت رقم ١١.

فورجه في البيت التاسع والعشرين، وفي البيت الثلاثين أضاف شرح ابن جنى إلى شرح ابن الأفليلي، وفي شرح البيت التاسع عشر استعان بشرح الواحدي منفرداً، أما في شرح البيت السابع والعشرين فعقب بجملتين من شرح الواحدي دون أن يسميه بعد شرح الأفليلي، واستعان به في شرح البيت الثاني والثلاثين مع شرح أبي القاسم الأفليلي[1].

والجداول التالية توضح مدى استعانة صاحب التبيان بشرح الأفليلي ونسبته إلى الشراح في ذلك.

جدول رقم ١

مطلع القصيدة:

بنا منك فوق الرمل ما بك في الرمل وهذا الذي يضني كذاك الذي يبلي

الشراح		ابن جني	ابن فورجه	الواحدي	الأفليلي
رقم القصيدة	١٧٨				
عدد أبياتها	٣٢				
مرات الشرح المتفرد		-		٣	٢٧
مرات الشرح المشترك		٢	١	١	٤

(١) انظر التبيان ٣/٤٣ - ٥٢.

جدول رقم ٢

مطلع القصيدة:

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل وعاه قلباه قبل الركب والإبل

الشراح		ابن جنى	ابن فورجه	الواحدي	الأفليلي	ابن القطاع
رقم القصيدة	١٨٢					
عدد أبياتها	٤٨					
مرات الشرح المتفرد					٣٧	
مرات الشرح المشترك		٣	٤	٣	٧	١

وتفسير المشترك في هذا الجدول كما يلي:

الأفليلي والواحدي مرتان.
الأفليلي مع ابن جنى مرة واحدة.
الأفليلي مع ابن فورجة مرة واحد.
الأفليلي مع ابن فورجة والواحدي مرة واحدة.
الأفليلي مع ابن فورجة وابن جنى مرة واحدة.
الأفليلي مع ابن فورجة وابن جنى وابن القطاع مرة واحدة.

جدول رقم ٣

مطلع القصيدة:

ليالي بعد الظاعنين شكول طوال وليل العاشقين طويل

الشراح		ابن جنى	ابن فورجة	الواحدي	الأفليلي	ابن القطاع	أبو الفضل العروضي
رقم القصيدة	١٨٧						
عدد أبياتها	٦٥						
مرات الشرح المتفرد					٥٤		١
مرات الشرح المشترك		٥	٢	٤	١		

وتفسير المشترك في هذا الجدول كما يلي:

الأفليلي والواحدي ثلاث مرات.
الأفليلي وابن جنى وابن فورجة وابن القطاع مرة واحدة.
الأفليلي وابن جنى والواحدي مرة واحدة.
ابن جنى وابن فورجة مرة واحدة.

وتجدر الإشارة إلى أن صاحب التبيان في القصائد الثلاث السابقة لم ينسب إلى الأفليلي شرحه فيما استعان به، على الرغم من عدد المرات الذي يصل إلى مائة وثماني عشرة مرة، إلا مرة واحدة في القصيدة الثالثة. ولست أدري إن كان النص على الأفليلي في مقدمة الشرح، أو النص عليه عرضاً نادراً، يكفي في عدم اتهامه بنحل شرح غيره قصداً!

ولا يقال إن عدم التوثيق عند صاحب التبيان ليس خاصاً بابن الأفليلي، إذ لم ينسب ما أخذه من شرح ابن جنى والواحدي وغيرهما في مرات عديدة، لأن النص على هذين الشارحين ظاهرة واضحة في شرح التبيان.

قيمة شرح أبي القاسم الأفليلي

ومن المهم في هذا المجال أن نشير إلى أن فضيلة التميز لشرح الأفليلي ظاهرة على نظرائه من الشراح الذين جمعهم به صاحب التبيان، ومن أمثلة ذلك قول المتنبي:

نجوت بإحدى مهجتيك جريحة وخلفت إحدى مهجتيك تسيل

قال في شرحه: «يريد أن الدمستق ضرب في وجهه في هذه الوقعة، فمضى هارباً، وأسر ابنه، فجعل مهجته مجروحة، وإن كانت الجراحة لا تكون إلا في البدن، لأنها تسري إلى الروح، وقوله «تسيل» قال أبو الفتح: يعني أن ابنه يذوب في القيد هماً وغماً.

وقال الواحدي: ليس قول أبي الفتح بشيء، وإنما المعنى أنه يقتل فيسيل دمه.

والمعنى: أنه يخاطب الدمستق فيقول: أنت وابنك كالشيء الواحد، ومهجتاكما كالمهجة المفردة، وإن كنت نجوت بمهجتك بعد الجرح الذي نالك، وخزي الفرار الذي لحقك، فقد تركت مهجتك الثانية في قبض الأسر سائلة، ولحقيقة الهلاك مباشرة، فما أدرك ابنك أدركك، وما لحقه فقد لحقك»[1].

وإذا أضربنا صفحاً عن نسبة صاحب التبيان جزءاً من هذا الشرح دون تمامه إلى الواحدي[2]، وعدم نسبته إلى أبي القاسم الأفليلي الشرح الواقع بعد

(١) التبيان ٣/١٠٦.

(٢) انظر ديوان المتنبي شرح الواحدي ج ٢/٥٢٠.

قوله: والمعنى، فإن شرح أبي القاسم الأفليلي يتميز على ابن جنى والواحدي بإدراك العمق النفسي في التوحد بين الأب والابن في المشاعر والأحاسيس، فما أصاب أحدهما أصاب الآخر.

وفي قول المتنبي:

ولا تـرد الـغـدران إلا ومـاؤهـا من الـدّم كـالـريحـان تحت الشقـائق

كان فهم الأفليلي متميزاً أيضاً بين الشراح الذي اعتمد عليهم صاحب التبيان.

«قال أبو الفتح: لكثرة ما قتل من الأعداء جرت دماؤهم إلى الغدران فغلبت على خضرة الماء حمرة الدم، والماء يلوح من خلال الدم، فالريحان تحت الشقائق؛ لأن ماء الغدير أخضرُ من الطحلب، فشبه خضرة الماء وحمرة الدم بالريحان تحت الشقائق.

وقال ابن فورجة: لا تشرب خيله الماء إلا وقد حاربت عليه، واحمرّ الماء من دم الأعداء، كما قال بشار:

فـتى لا يـبـيـت عـلـى دمـنـة ولا يشرب المـاء إلا بـدم

ويجوز[1] أن يكون أراد أن خيله لا تقرب الغدران واردة، ولا تقتحم مياهها شاربة، إلا وتلك المياه تحت ما يسفكه من دماء أعدائه، كالريحان في خضرته، إذا استبان تحت الشقائق، واستولت بحمرتها على جملته، وأشار بخضرة بالماء إلى صفائه وكثرته، ونبه بذلك على جموعه، وأن هذه الخيل إنما تأنس من الماء ما هذه صفته، وترد منه ما هذه حقيقته»[2].

فإذا كان ابن فورجة (٤٠٠ ـ ٤٥٠ هـ) تطابق في فهمه مع جانب من

(١) انظر القصيدة ٦٦ البيت رقم ٤٣.

(٢) التبيان ٢/٣٣٠.

فهم ابن الأفليلي وهو عادة خيل سيف الدولة في الشرب من المياه التي احمرت من سفك دماء الأعداء؛ فإن مغايرته في هذا الفهم بدلالة الخضرة التي فسّرها بصفاء الماء وكثرته وجمومه، تدل على ذوق يقصد إلى ما وراء الدلالة الظاهرة في ورود الخيل، وخضرة الماء.

والحق أن لأبي القاسم الأفليلي في شرح هذه السيفيات شخصيّة متميزة مصدرها ثقافته وذوقه وذكاؤه وفهمه، إذ كان معتداً بذاته كثيراً وقد «بذ أهل زمانه بقرطبة في علم اللسان العربي»، «متصدراً بالأندلس يقرىء علم الأدب، ويُقْرَأُ عليه، ويختلف فيه إليه، . . . ويتكلم في معاني الشعر وأقسام البلاغة والنقد لها»، «عظيم السلطان على شعر حبيب الطائي وأبي الطيب المتنبي».

ولذلك لم نجد في شرحه ذكراً لأحد من شراح المتنبي ممن سبقه إليه، شأن المتأخر في إفادته من المتقدم، وكما هي عادة بعض من شرح ديوان المتنبي مثل الواحدي الذي أخلى كثيراً من الأبيات من شرحه، وأقام مكانه قول ابن جنى أو ابن فورجة.

ولا يعني ما سبق أنني أباعد بين أبي القاسم الأفليلي والإطلاع على جهد من سبقه، ولكني قصدت إلى استقلالية فهمه، وتميّز اتجاهه، ولذلك أسقط اعتراض غيره، وإن كان خاطئاً، ولم يأبه لرأي من سبقه وإن كان صائباً. وفي قول المتنبي التالي مثال على ذلك إذ يقول:

الشمس من حساده والنصر من قرنائه والسيف من أسمائه
أين الثلاثة من ثلاث خلاله من حسنه وإبائه ومضائه

«قال أبو الفتح: يقول: أين حسن الشمس من حسنه، وأين النصر من إبائه، وأين مضاء السيف من مضائه، أي إذا أُتي أمر، قصر السيف عن عزيمته وإبائه. وكأنه رجع في هذا البيت عما أعطى له في البيت الذي قبله، ولو قال وأين بالواو لكان أغرب؛ لأن الواو تخلط الثاني بالأول، ولا تجعل لأحدهما مزية

على الآخر في التقدم والتأخر، وإذا لم يأت بالواو صار الكلام كأنه منقطع، ألا ترى إلى قول الراجز:

«يا فقعسا وأين مني فقعس»[1].

ولم يلتف أبو القاسم الأفليلي إلى اعتراض ابن جنى ونقده في شرحه لهذا البيت إذ يقول: «ثم قال: أين هذه الثلاثة مع جلالة أمرها، ورفعة قدرها من جلال خلاله الثلاثة، التي هي على نحوها لجلالة الفضل، لأن الشمس تطلع وتغرب، والنصر يقل ويكثر، والسيف ينبو ويقطع، وحسنه ثابت لا يعدم، وعزه زائد لا ينقص، ومضاؤه نافذ لا يدفع.

وهذه طريقة من المجاز يحسنها للشعراء ما يحاولونه من بلوغ غايات المدح، وما يتعارف من مثلها في اللغة»[2].

لكن أبا القاسم أدرك علة المفارقة في البيتين التي أقام عليها المتنبي التباين بين ما قدّم من معان حسيّة متغيرة في البيت الأول، وما أخر من قيم جمالية معنوية ثابتة في البيت الثاني، وقد وصل أبو القاسم إلى ذلك بحسن توده للمعاني بعمق صلاتها من غير حاجة إلى قسرية إعمال اللغة وسطوة قاعدتها.

ويؤيد أبا القاسم الأفليلي فيما ذهب إليه المتأخرون من الشراح مثل ابن المستوفي وأبي البقاء العكبري، إذ يقول ابن المستوفي: «قال المبارك بن أحمد، والصحيح أنه أراد أين حسن الشمس من حسنه، وأين النصر من إبائه ومن امتناعه؛ لأنه إذا أبى شيئاً كان أوفى من النصر، وأين مضاء السيف من مضائه؛ لأن السيف به نباء أو كل، وهو لا ينبو ولا يكل ـ . . . . وقال أبو البقاء العكبري: قالوا: وكان الأحسن أن يقول وأين بالواو وليختلط هذا

(١) النظام في شرح المتنبي وأبي تمام ج ١ ورقة ٢٦.
(٢) انظر القصيدة ٤٦ البيتين ٥ ـ ٦.

البيت بما قبله، وكأن كلامه مستقل بنفسه، وله نظائر في الشعر بالواو. وحذف الواو هنا يسير لا يضعف المعنى به، لأنه مذكور عقيب الأشياء الثلاثة، وفي الثلاثة الألف واللام وهما للمعهود السابق، فنزل ذلك منزلة الواو، وأعاد من مع البدل. والذي قاله أبو الفتح أولى وأكثر في الشعر»[٢].

وعلى الرغم من وضوح شخصيّة الأفليلي في شرحه فقد ظلمه ابن المستوفي إذ لم ينقل عنه شيئاً، ولم يشر إليه أية إشارة، على كثرة المصادر التي أخذ عنها، والشراح الذين نصّ على أسمائهم من سابقي الأفليلي ومعاصريه وممن تأخروا في أزمانهم عنه، مثل ابن جنى، الواحدي، ابن فورجة، أبي العلاء المعري، العروضي، أبي البقاء العكبري، أبي زكريا الخطيب التبريزي، الشريف المرتضى، صاحب فتق الكمائم أبي علي الحسن به عبدالله المغربي الصقلي.

فيقول ابن المستوفي في مقدمة النظام «والناس في شعره اثنان؛ محام عنه مفرط، ومتعصب عليه مفرط، وكلاهما متجاوز به حدّه، غال فيه حكمه، دفاعاً عنه وتحاملاً عليه، وهم مع ذلك عن معانيه أشد سؤالاً وأكثر في كل مقام مقالاً، وأنا أجمع من أقوال العلماء في ذلك ما وافى البحث عنه إليه، ووقفني العلم به عليه، مختصر ما أورده بوسع جهدي، ومصححه بقدر طاقتي، وناسبه إلى قائله، ومسنده إلى ناقله...»[٢].

ويقول ابن المستوفي في موضع آخر «... ولما كتبت ذلك نظرت في كتاب أبي زكريا لأنقل منه إلى هنا ما يحسن نقله»[٣].

وعلى ذلك فهل عدّ ابن المستوفي أبا القاسم الأفليلي أحد طرفي النزاع

(١) النظام في شرح المتنبي وأبي تمام ج ١ / ورقة ٢٦.
(٢) النظام ج ١ ورقة ١
(٣) النظام ج ٢ ورقة ٧٣.

في المحاماة عن أبي الطيب بإفراط؟ أم أنه لم يجد عند الأفليلي ما يحسن نقله؟!.

لا نستطيع أن نخلي الشروح التي نقل عنها ابن المستوفي من التعصب لأبي الطيب، وكذلك فإن بعضاً مما نقله منها لا كبير غناء فيه، إذ لا يجاوز الجملة المقتضبة البسيطة، لكن كثيراً منها كانت معرضاً للغة وتطبيق قواعدها واستعراض أحكامها، فضلاً عن ذكر للمآخذ ودفع لها، وهو ما لم يأبه له ابن الأفليلي أساساً في شرحه.

وللرواية في شرح أبي القاسم الأفليلي أهمية خاصة، فهو معتمد لإحدى الطرق المتقدمة التي روي بها ديوان المتنبي في الأندلس، قال ابن خير الأشبيلي: «حدثني به الوزير أبو بكر محمد بن هشام بن محمد المصحفي، قال: قرأته على أبي رحمه الله، وأخبرني به عن أبي عبدالله محمد بن أحمد بن قادم وأبي يحيى زكريا بن بكر بن أحمد بن الأشج الغساني، والأشج هو أحمد، يكنى أبا جعفر، وأبي القاسم الحسين بن الوليد، يعرف بابن العريف، كلهم عن أبي الطيب المتنبي. قال أبو بكر المصحفي: أما ابن قادم وابن الأشج فعن المتنبي، وأما ابن العريف فعن أبي بكر الطائي عن المتنبي»[1].

وأخذ أبو القاسم الأفليلي ديوان المتنبي عن ابن العريف، قال ابن الأفليلي: «قرأته على أبي القاسم الحسين بن الوليد، ويعرف بابن العريف، عن أبي بكر الطائي، وإبراهيم المغربي، كلاهما عن أبي الطيب»[2].

وعن أبي القاسم الأفليلي أخذ ثقات الرواية في الأندلس إذ حدث به أبو مروان عبد الملك بن سراج عن الأفليلي، وحدث به الأعلم الشنتمري أبو

(١) فهرسة ابن خير الأشبيلي ص٤٠٣ ـ ٤٠٤ وروى ديوان المتنبي في الأندلس عن أبي الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني عن أبي الحسن علي بن الحارث البياري عن أبي الطيب.

(٢) فهرسة ابن خير الأشبيلي ص٤٠٣.

الحجاج يوسف بن سليمان النحوي قراءة عليه، وحدث به الوزير أبو تميم العز بن محمد بن أبي موسى بقنه[1].

ولأسلوب أبي القاسم الأفليلي مميزات تجعله ظاهراً متفرداً بين شراح ديوان أبي الطيب المتنبي، فكما حرص على الأداء المفهم باللفظ البسيط السهل، فإنه كان أشد حرصاً على التعبير الأدبي ذي الألفاظ المنتقاة، والتراكيب ذات الأبعاد الإيقاعية الفنية. ويتبدى انتقاء اللفظ في شرحه لقول المتنبي:

تنكسهم والسابقات جباهم وتطعن فيهم والرماح المكائد

قال الأفليلي: «ثم وصف حال أولئك، فقال: تنكسهم والخيول جباهم، يريد أنهم لا يتعاطون مقاتلتك بالخيل، وإنما يعتصمون منك بالجبال، فهي خيلهم، واستنزالهم منها تنكيسهم، ونقل الكلام على سبيل الاستعارة، ثم قال: وتطعن فيهم بغير الرماح لأنهم يعجزون عن مبارزتك، فتستعمل فيهم من مكائدك ما تفتح معه حصونهم، وتوجه إليهم من تدبيرك ما تصدع به قلوبهم، فتنزلهم مما ارتفعوا إليه بعزمك، وتطعن فيهم حيث تحرزوا منك برأيك»[2].

ويغلب السجع والمزاوجة بين الجمل على صياغة أبي القاسم الأفليلي، بما يكسب شرحه طابعاً أدبياً، يتردد فيه إيقاع موسيقي مقصود دون تصيّد أو تكلف غالباً، يقول في شرح قول المتنبي:

فيا أيها المطلوب جاوره تمتنع ويا أيها المحروم يممه ترزق

«ثم يقول: فيا أيها الخائف المطلوب، والمروع المحروب، جاور سيف الدولة تمتنع بعزه، وتأمن من المخاوف بما يمده عليك من ظله، ويا أيها

(١) فهرسة ابن خير ص ٤٠٣.

(٢) انظر القصيدة ٣٠ بيت رقم ٢٢.

المحروم في قصده، والمضيق عليه في رزقه، يممه تسعد بقصده، وتتقدم المكثرين بما يشملك من فضله»[1].

والصنعة في هذا النثر التأليفي مقصودة عند أبي القاسم، فغدا شرحه أدباً إنشائياً يعمل فيه براعة في الاشتقاق البديعي وتصعيد المعنى من خلال ذلك. ونلمس ذلك في تناوله لقول المتنبي:

طلبتهم على الأمواه حتى تخوف أن تفتشه السحاب

«ثم يقول له: طلبت بني كلاب على الأمواه التي هي مظان الأعراب في ارتحالها، ومنازلها عند انتقالها، فبلغت غايات تلك الفلوات النائية، ودوخت أقاصي تلك الرمال الشاسعة، وقرب عليك منها ما يقرب مثله، وفعلت في التوصل إليها ما لا يمكن غيرك فعله، ونلت من ذلك ما ليس السحاب بأبعد منالاً منه، ولا يخرج بشدة الامتناع عنه، ودلّ بقوله (تخوف أن تفتشه السحاب) على هذه العبارة»[2].

إن النظرة في قوله «قرب... ما يقرب، وفعلت... ما لا يمكن غيرك فعله، ونلت... ما ليس السحاب بأبعد منالاً منه» تنبىء عن قصد في تصعيد المعنى وتشقيقه لفظياً بما يحقق له التحسين والتزيين للصياغة والأسلوب.

ولا يخفى ما وراء هذا التشكيل الفني بالسجع والمزاوجة والاشتقاق البديعي من معنى، وفائدة بيانية، وأكثر هذا التزيين يجري في شرحه مجانباً للتكلف، لكن الإبانة قد تتعثر بالتزيين والصنعة فيكون التكلف في اصطياد السجع لديه أحياناً، من ذلك شرحه لقول المتنبي:

وما الدهر إلا من رواة قلائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

(١) انظر القصيدة ٤٢ بيت رقم ٤٠.

(٢) انظر القصيدة ٦٣ بيت رقم ٤.

إذ يقول: «وما الدهر إلا من رواة أشعاري التي هي كالعقود والأطواق، والقلائد في الأعناق، فإذا قلت شعراً فالدهر ينشده مرفعاً به، ويرويه قصيداً له، ويبقيه ما بقيت الأيام، ويخلده ما أعملت الأقلام»[1].

فالإحساس غير خاف بثقل القلائد في الأعناق، التي حشرت من غير معنى لتناسب العقود والأطواق، والتكلف باد على قوله «ويخلده ما أعملت الأقلام» وإن كان المعنى محتملاً لها، إذ جاءت لإحداث التناغم مع «ويبقيه ما بقيت الأيام».

غير أن هذا التكلف البادي أحياناً على شرحه لا ينازع في اطراد مهارته الفنية في اختيار العبارة الرائقة المقبولة ذات الدلالة على المقصود والمعنى، وهذا لا يتناكر مع ما نعت به ابن حيان رسائله حين قال «واستكتبه محمد بن عبد الرحمن المستكفي بعد ابن برد، فوقع كلامه جانباً من البلاغة، لأنه كان على طريقة المعلمين المتكلفين، فلم يجر في أساليب الكتاب المطبوعين فزهد فيه»[2] لأن تولي أبي القاسم الأفليلي لهذا المنصب دليل امتياز أدبي كان ظاهراً به، وشارة اتجاه جمالي كان مُمَثَّلاً في نتاجه، فرشحه ذلك لهذا المنصب الذي كانت دولة الخلافة الأندلسية تجري سننها على الاهتمام به في مكاتباتها الرسمية[3]، ومثل هذه المكانة تحمل الكثيرين على حسد صاحبه وتكبير هفواته، وتصيّد زلاته.

وأياً كان الرأي في طريقة أبي القاسم الكتابية فإن شرحه لشعر أبي الطيب المتنبي يظل صورة للفن في النثر التأليفي الذي ماز القرن الخامس الهجري في الأندلس عن نظيره الأدب العربي في المشرق، حين جرت التآليف الأدبية في الأندلس كالبديع في وصف الربيع، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحمل أناقة التعبير في اللفظ المنتقى، والصياغة الموقعة.

(١) انظر القصيدة ٥٧ بيت رقم ٣٦.

(٢) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٨١.

(٣) ديوان ابن شهيد ـ يعقوب زكي ص ١٥.